القصص

قصة مصرية

شـــباب . . .

للأستاذ دريني خشبه

« الأغاني والحوار موضوعات
في الأصل باللهجة المصرية . . . »

— « بل لا بد أن أذكر لوالدتها كل شيء ! »

— « ياسيدتي مالنا وللناس ، حسبنا أن نأكل خبزاً ونشرب لبناً وعسلاً ! »

— « آه ... لا ... نأكل خبزاً ونشرب لبناً وعسلا ونترك هذا الموظف اللاهي يعبث بابنة صاحب المنزل ! لا ! ليست هذه أمانة يا متولي ، لا بد أن أنقذ عرض هـذه الصغيرة ... إن ليلى شابة ، والشباب لا عقل له ، وربما اعتدى ... »

— « أوه ! مالك وللناس ! إنهما لابد يحبان بعضهما بعضاً يا بخيتة . ألا تذكرين ما كنا نصنع ، أنا وأنت ، قبل أن نتزوج . ؟! »

وتستحي بخيتة وتسكت قليلاً ثم تتنفس تَنفُّسةً عميقة وتقول :

— « الحمد لله يا متولي ، لقد كنا نحب بعضنا ، هذا صحيح ، ولكن ، الحمد لله ، لم نُغضب ربنا ! ؟ »

— « مرحى مرحى ! صحيح نحن لم نُغضبه قط ، وأحسبه قد غفر لنا الألف ألف قبلة التي تبادلناها ! »

ويشتد خجلها ، وتصمت لحظة ثم تقول :

— « أنت دائماً مبالغ يا متولي ! ألف ألف قبلة ؟ إن هذا العدد لا يؤخذ في أقل من عشر سنين ، ونحن لم نحب بعضنا أكثر من شهر ! »

— « ثم انقطع ما بيننا من حب ؟ أم ماذا ؟ »

— « بل تزوجنا ! »

— « وليتنا ما تزوجنا ! »

— « فأل الله ولا فألك يا متولي ! لماذا يا شيخ ؟ »

— « لأن قُبلنا كانت حلوة جداً قبل زواجنا ! »

— « والآن ؟ هل هي مرة ؟ أم ماذا ؟ »

— « ... ؟ ... »

— « قم بنا »

— « إلى أين ؟ »

— « إلى السطح ! »

— « لماذا يا امرأة ؟ »

— « لأريك ماذا تصنع ليلى مع هـذا الموظف « سامي افنـدي » ! »

وهرولا فوق الدَّرَج ووقفا خلف (المَنْوَر) الزجاجي المطل على غرفة سامي ، يريانه ولا يراهما ...

***

فتى في الرابعة والعشرين ترف على جبينه سحابة من الحزن ، يلونها الحب بأمواه باكية من الحنان والرحمة والهدوء .. له عينان عميقتان كأنما تخرقان حجب الزمان أو تناجيان سكان السماء ؛ ينظم الشعر ويهيم بالغناء ويشغف بالموسيقى ، ويجمع في مسكنه بالطابق العلوي من هذا المنزل المتوسط طائفة مختارة من التماثيل أهداها إليـه أصدقاؤه المولعون به لنفر من فنانين مصريين وعرب . وهو موظف في مصرف أجنبي يتقاضى مرتباً لا بأس به ، يستطيع أن يضمن به صفاءه الذي لا بد منه للشعر والغناء والموسيقى ... والحب الذي يحق هؤلاء

كان إذا هدأ الليل ، هدأ هو إلى عوده ، وطفق يمر أنامله على أوتاره في لين ورفق ، كما ترى النسمات النحيلة العليلة على صفحة الغدير الصغير ؛ فاذا غنى ، أرسل من قلبه ألحاناً هي لا شك روحه ممتزجة بموسيقاه ؛ ولم يكن يغني إلا ما ينظم هو ، لا ما ينظم الشعراء ؛ وكان ، إذا سئل في ذلك ، يتعلل بأنه يأبى

أن يكون كنادبات الجنائز ، يرجّـعن كلاماً محفوظاً ليبكين به النساء ... فالشعر شعره ، والغناء غناؤه ، والموسيقى موسيقاه ، وجملة أولئك صورة روحه التي تشعر وتغنى ، وترن وتئن على أوتار العود

وكانت ليلى ابنة صاحب المنزل الذى يقيم فيه سامى ، فتاة فى الثامنة عشرة ، لها لَفْتة وفى عينيها سحر ، وملء قلبها أمانى ... ما كاد الساكن الجديد يملأ منزلها بصباه العطر ، وغنائه ذى الشذى ، وموسيقاه ذات المعانى ، حتى رجعت هى أصداءه جميعاً ، وأحست كأن الساكن الجديد لم يأت ليشغل الطابق العلوى من بيتها ، بل ليحتل السويداء من قلبها ؛ فكانت كلما أقبل سامى من عمله فى المساء تشعر كأن كهرباء ملأ قلبها ، فهو يدق ويدق ، ويخفق خفقاناً شديداً ، ويسرى فى جميع أعصابها بكل حاجات الشباب الذى أضر به كبت المحبسين : المنزل الشرق والتقاليد !

وكانت موجات أثيرية من غناء سامى وموسيقاه تشيع فى أرجاء المنزل فتهز أركان ليلى ، وتذيب فى عينيها دموعاً ليست كهذه الدموع التى يحتلبها البكاء ، ولكنها دموع علوية لا يدرى المحب من أين تنهمل ، لولا ما فى أغواره من معانى الهوى ...

وانسرقت ليلى فى أمسية إلى (السطح) ووقفت مختبئة فى نفس المكان الذى وقف فيه هذان العجوزان — متولى وبخيتة — يتلصصان على كيوبيد ، حين يرشق القلبين الحبيبين بسهامه الذهبية !

وقفت ليلى ثمة ، وتلبثت طويلاً تملأ أذنيها وقلبها بغناء سامى وحبه ، ثم جعلت بعد ذلك تنسرق كالمرة الأولى ، حتى تنبه غافل الشباب ، فراح بدوره يرسل إليها أغانيه حاملة قلبه ، ثم لم يجد بأساً ، وقد تأكدت بينهما أواصر الحب ، من أن ينافلها وينسرق إلى حيث هى ، فلا يكاد يسقط فى يديها وترتبك ارتباكة يسيرة حتى يقدم إليهـا يده الرتجفة ، فتصافحه وتنفتل منه فتطوى الدرج إلى ... حيث تكون بخيتة مصمدة فتكتشف السر الناشئ الذى لما يكد يشب أو يترعرع ...

***

كان سامى يجلس على كرسيه محتضناً عوده ، وأمامه ليلى على (كنبة) تحدق فيه ، وقد وضعت رجلا على رجل ، وبدا ساقاها الممتلئتان طراوةً ونعومة وحياة وانسجاماً ، واتكأت بظهرها على المسند فبهد جيدها المرمرى ، وبدت انثلاقة الثديين من فتحة الثوب الوردى الذى كانت ترتديه ، فاختلط ورده بوردها المتفتح فى كل جزء من جسمها الناضج السوِى ، وأسندت فَوْدها على يمينها قليلا ، وتهدلت خصلة من شعرها الأسود الفاحم على أصابعها فزادتها فتنة

وكان سامى يداعب عوده ، ولم يكن ينظر إلى ليلى ، بل كان مطرقاً برأسه قليلا ، حتى إذا استغرقته الموسيقى أرسل من عينيه عَبرتين لحتهما ليلى فنهضت مسرعة وتلقتهما فى منديلها الحريرى الجميل ... ثم جلست إلى جانبه ، وأرسلت ذراعها البضة فوق كاهله ، وأدنت رأسها من رأسه ... ولم تكلمه !

وصمت سامى لحظة ، ثم شرع يتغنى أغنية مطلعها :

إيه يا ليـلى ، وقد طاب الهـوى
وصَفَتْ أنفاسُهُ للأنفس
ما لقلبى خَـفِـقاً ؟ ! هل من جوى
ومُـنى نفسى معى فى مجلسى ؟

وكان الفتى يرسل غناءه هادئاً يترقرق فى أذنى ليلى ، وكانت نبراته ونبرات العود تأتلف وتسرى فى الهواء فيرتقص من أسْرها لهب الشمعة التى كان سامى يؤثرها على لألاء الكهرباء كلما غنّى ... وكلما زارته ليلى

وفرغ سامى من غنائه ، وسكنت الحجرة قليلا ، ثم نادته فتاته :

— « سامى ! »

— « ليلى ! »

— « هل أسعد منا حبيبان فى هذه الحياة ؟ »

— « كنت أرجو ذلك يا ليلى ... »

— « ولم لا نكون ياسامى ؟ »

— « آه ... أكثر الناس يحبون على أمل ... أما نحن ... »

— « مالنا ؟ »

« لا شيء ... لا شيء مطلقاً يا ليلى ، لنعـد إلى أحلامنا وموسيقانا فهى غذاء روحينا . دعى هذا الحديث فانه يزعجنى . بحسبى أن أكون معك لحظة بعد أخرى فأذوب وأحترق ! »

— « بل سنتحدث ؛ بل ينبغى أن نفكر فى المستقبل ، إنى

لم أعد أطيق فكرة بعدى عنك يا سامى ! إغفر لفتاة عذراء مثلى أن تكلمك هكذا ! لقد امتزجت روحانا فليس يضيرنى أن أصارحك ! لقـد اقتنع قلبانا ألا غناء لأحدهما عن الآخر ، فلم نجلس صامتين تلقاء المستقبل الذى يروعنا بالفراق ولا نفكر فى أن نحسم مشاكله ؟ »

— « وهل نستطيع ذلك يا ليلى ؟ أنسيتِ ... »

— « نَسيتُ ما ذا ؟ لا ... لا تظن ذلك محالا ! »

— « ليلى ! ما ذا تريدين أن تقولى ؟ »

— « إطمئن ! »

— « أطمئن كيف ؟ »

— « أجل ، يجب أن تطمئن ، لقـد صممت على أمر عظيم ! »

— « ليلى ! »

— « بل لن تردنى أية قوة فى العالم عما اعتزمته يا سامى ، أليس كل ما يقوله الأغبياء إننى انهزمت بدينى أمام حبى ؟ »

— « ليلى ! »

— «لينهزم هذا الدين فأنا لم أعرفه بنفسى ...أما الحب...»

— « أنت جريئة جـداً يا ليلى ! لا ... لا ينبغى ... هذا كثير ! »

— « لا ينبغى ما ذا ؟ ألست تتفق معى ؟ »

— « وكيف أتفق معك يا ليلى ودينى يربى الله من خلل الحب ؟ »

— « إذن اتفقنا ، إننى لم أر الله إلا يوم أن رأيتك ! ويجب أن أصل الى الله عن طريقك يا سـامى ... إهدنى يا سامى ... لا تردنى بعنف هكـذا ، إنك مسلم رقيق القلب مرهف الحس فياض العاطفة ، وإن روحك تتكلم بلسان الموسيقى يا سامى ، فلا تحاول أن تكون جباراً علىّ ، لا تحاول أن تردنى عما اعتزمته ... أ ... ألا تريد أن نأمن غائلة الفراق ، والفراق الأبدى يا سامى ؟ »

— « وكيف لا أريد يا ليلى ! »

— « ساعدنى إذن ، خذ بيدى الى ناحيتك ... سامى ... سامى ... »

وانفجرت الفتاة تبكى بين يدى حبيبها ، وأخذ سامى يلاطفها ويُرَفّه عنها ، ولكنها دسّت رأسها الجميل فى صدره ، وأغفت إغفاءة هينة لم يوقظها منها إلا شـدة خفقان قلب سامى ... قلبه الكبير جداً ، الذى أشرب حب ليـلى ، وامتزجت كل قطرة من دمه بتقديسها !

— « صحوت يا ليلى ؟ »

ولكنها أجابته بنظرة فاتنة من طرف عينيها المبللتين بالدموع

— « كلمينى يا حبيبتى ... ليلى ؟ »

— « سامى ... اسكت ! إن هذه الفترة الصامتة الباكية أسعد فترات حياتى ! »

وطوقها سامى بذراعيه ، وأخذ ينزح أسرار عينيها الباكيتين بعينيه العميقتين ، ثم أهوى على فمها القرمزى ذى الثنايا المفلجة يقبله ... ويقبله

* * *

— « أرأيت يا متولى ؟ هل صدقت ما قلته لك ؟ والله لأخبرن أمها ! »

— « بخيتة ! ! أنت طالق إن فعلت ! يا غبيـة ! يا أقبح النساء ! »

— « أنا ؟ أنا أقبح النساء ؟ وأنت ؟ أتحسب أنك زين الرجال ؟ »

— « لا ... ولكنى كنت أطمع فى ... فتاة طيبة ... »

— « مثل ليلى أظن ؟ »

— « أجل ... »

— « إسم الله عليك يا سامى أفندى ! »

— « أحببته ؟ أم ماذا يا امرأة ؟ »

— « صوته جميل ... أما صوتك ، فحميرى خالص !! »

— « اسكتى يا خنزيرة ... هلمى بنا ، كاد شباب الحبيبين يتلف قلبينا العجوزين ! »

* * *

ونزل الخادمان وفى قلب كل منهما غصة تزلزله

وبعد أيام همَسَ الناس فى هـذا الحى من أحياء المدينة أن ليلى ابنة (...) اليهودى قد صبأت ... واعتنقت الاسلام

وبعد أيام أخريات ، تأكد هذا الهمس ، لأنها تزوجت سامى أفندى بالفعل ، ونقل العروسان الى الاسكندرية ليعيشا ثمة حياة هانئة ناعمة موفورة

دريني خشبة